١ — من وحي الآثار :

مع ملاحي الشلال الأول

للأســـتاذ مصطفى كامل ابراهيم

« أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين » .
(قرآن كريم)

حدثنا الأستاذ عبد الحفيظ أبو السعود فى العدد ٧٤٦ من الرسالة عن ذكرياته الشائقة فى بلاد النوبة فقال : « وللشلال شهرة بالملاحة ، فأكثر الملاحين الذين يشتغلون فى البواخر النيلية بوجه عام ، تجارية وحكومية ، وشراعية ، من هذه البلاد الصغيرة المسماة بالشلال !! » .

وتروى لنا مخلفات القدماء ها هنا ، أن رجالات الشلال قد أدوا لوادى النيل من الخدمات فى غابر الأيام ما يتوج المصريين بتاج الفخار وهى باقية ما بقى العلم وما بقى الاعتراف بالصنيع ، وأن لهؤلاء الرجال فى أعناقنا جميلا فلنؤده إحياء لذكراهم وإن قل هذا الأداء .

ولقد لعب النيل دوراً هائلا فى حياة المصريين منذ نشأة الحياة الأولى على ضفافه ومنذ بدأ القوم يتعلمون الزرع والمضرع على يد « أوزيريس » الطيب القلب ، الكريم المحتد ، فلا عجب إذاً أن ملاحى الشلال الأول الذين وقفوا حياتهم على خدمة النهر والعناية بأمره وحماية منابعه[1] ، أن يكتبوا بأحرف من نور ، سجلا تاريخياً حافلا بجلائل الأعمال .

وقصة « أوزوريس وست »[2] ، هى القصة التى ملأت وجدان المصريين القدماء طوال أيام تاريخهم القديم ، واحتلت مكان الصدارة من حياتهم الدنيوية ، وأثرت فى نفوسهم بالخير والبركة ، ولعلها السبب الثانى بعد الطبيعة السهلة التى خلقت فى المصريين النفس السمحة ولين العريكة وطيب القلب ، مما أوحى إلى « هيرودوت » أن يصدر حكمه المشهور « المصريون قوم يخشون الله » .

وطال ترديد القصة بين أفواه الناس وأسماع الزمن ، حتى تجاوبت أصداؤها فيما وراء البحر وجاء بلوتارخ سنة ١٢٠ من ميلاد المسيح ، يستنبىء الناس الخبر ، ويستقرىء الآثار ، فسمعها من الكهنة ثم كتبها للناس . ودلت الآثار على أن الرجل لم يكن متجنياً كغيره من المؤرخين[1] .

وقد مست القصة مواطن العبقرية من الأدباء والشعراء المحدثين فقضوا الليالى الطوال ينعمون معها بفيض من الاطمئنان الروحى ثم انطلقت قرائحهم بالنثر والشعر الرصين ذلك لأنها من أجود القصص بل لعلها أجودها جميعاً ، والذى يقرؤها من قلم « شيلير Sehiller » يشعر بأن الرجل كان هائماً بها هيامه بما يكتب ، فأخرجها آيات مبدعات من روائع الفن .

وأنا لا أستطيع أن أتهم المصريين القدماء بأنهم عبدوا الإنسان والحيوان والجماد لذاته ، فإن ما خلفوه من مجد أثيل وثقافة عالية لا تسمح لهم أن ينزلوا هذه المنازل السحيقة من الجهل ، بل الرأى عندى أنهم أدركوا صفات الله تعالى وبحثوا عنه فى ملكوته ، فلم يروه ... ورؤا شيئاً من صفات الخالق فيما خلق ، فقدسوها على أن بها سراً من أسرار الله ... قدسوا «أزوريس» لكرمه ورحمته بالعباد ، والنيل لمثل ذلك «وخنوم» رب الشلال الأول لأنه يحمى منابع النيل ويصنع الخلق من طينته

وبالرغم من أن مصر لم تكن مهبط الأنبياء ، إلا أن المصريين القدماء قد أظهروا استعداداً طيباً لتقبل الأديان السماوية قد ينفردون به دون أمم الأرض ، ففى أيام موسى عليه السلام ، آمنت له امرأة فرعون وكل من شاهد برهان الله على يد رسوله ، ولما جاءت المسيحية اعتنقوها حتى لم يبق فى الديار كافر بها ، ثم لما أشرق نور الإسلام فى شمال الوادى ، سطع ضياؤه بين

(١) اعتقد القدماء أن النيل ينبع من الشلال الأول .

(٢) راجع دكتور أحمد بدوى : فى موكب الشمس جـ ١ . ص ٦٩ — ٧٢ — سليم بك حسن : الأدب المصرى القديم جـ ٢ — ص ١١٣ — ١١٥ و ١٠٧ .

(٣) راجع The Papyri of Chester Beaty. «Hymne d'Osiris». Stele Pib. Nat. 20. Rooder Urkunden Zur Religion P. 22—26.

جنباته وتتغلغل فى نفوس أبنائه المؤمنين « الذين قالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير » ، وامتد هديه حتى عم كل بقعة وطئتها أقدام الداعين للإسلام ، أولئك الذين شدّ الله فى أزرهم وقوى نفوسهم فلم تصدهم عن رسالتهم أفاعيل السياسة ولم يقعدهم مال .

ومثل المصريين كمثل ابراهيم عليه السلام لما قلب وجهه فى الكوكب والقمر والشمس باحثاً عن الله ، فلما أعياه البحث تداركه الله برحمته ، فهداه سواء السبيل[1] .

وأنا ممن يعتقدون أن القصص الدينى لم يكن كله حديث خرافة ، فمهما خصبت عقول البشر ومهما حاول المرتزقة من كهنة المصريين القدماء أن يقدموا للناس غذاء روحياً دسماً من الأساطير يعيشون على حسابه ، فلم يكن فى طوقهم ، ولا فى طوق غيرهم ، أن يخترعوا شيئاً من لا شىء ، فقصة « أوزيريس وست » إذاً هى قصة الأحياء من بنى الإنسان ، مثلها الأيام وكان مسرحها جنبات الوادى الأخضر ، وليس للكهنة عليها من فضل ، اللهم إلا تأليه أشخاصها ، وجلوها ، وتجهيزها ، ثم زفها للناس .

وتتلخص القصة فى أن « ست » حاكم الصعيد المشوم قد حقد على أخيه « أوزيريس » حاكم الدلتا لعدله وحب الناس له ، فصنع له تابوتاً على قدّه واحتال عليه حتى أرقده فيه ، وأحكم عليه الغطاء ثم ألقاه فى النيل ، وقذفته أمواج البحر إلى بيلوس (جبيل) من أعمال فينيقية (لبنان) ، وهناك أنبت الله عليه شجرة أرز وارفة أعجب بها حاكم تلك البلاد فقطعها ، وجعل منها عموداً يحمل سقف قصره ، وسمت « أيزيس » الزوجة المخلصة حتى عادت بتابوت الشهيد إلى الدلتا ، ثم كشفت الغطاء وأذرفت دمعة ساخنة سقطت على وجهه ، فأعادت إليه حياته بإذن الله ، إلا أن « ست » وافاه والمنية تسعى فى ركابه ، فمزق الشهيد قطعاً وبعثر أشلاءه فى أقاليم الوادى ... ثم عمد منه إلى عضو التذكير فبتره وألقى به إلى سمكة فى النيل ، حتى لا ينجب ذرية قوية تنازعه الغلبة والسلطان .

إلا أن « إيزيس » التى حملت من روح زوجها أنجبت له « حوريس » فيعمل هذا على الانتقام لأبيه ، ويطلب الاحتكام فى أمره وتبدأ أولى جلسات المحكمة فى (أون) عين شمس ، ويخاف « ست » على هيئة المحكمة أن تعصف بها فتنة « إيزيس » الجميلة الساحرة ، وتنتقل المحكمة إلى قاعة العدل العليا فى جزيرة فيلة عند الشلال الأول ، غير أن « إيزيس » تسافر إلى الشلال الأول وتطلب من أحد الملاحين أن ينقلها على سفينته إلى الجزيرة ويجيبها السفان أنه لن يستطيع هذا بأذن منها ، وتتمكن أخيراً من إغرائه بالذهب فيحملها إلى الجزيرة .

... وتتم كلمة الله ويجيء الحق ويزهق الباطل ويزهق معه روح « ست » .

ومنذ ذلك اليوم من فجر التاريخ إلى آخر أيام الفراعنة ، والملوك — إلا فى فترات قصيرة — يعتبرون أنفسهم أحفاداً « لحوريس » وذلك لإقرار شرعية حكمهم ، ومن أجل هذا كتبوا أسماءهم داخل إطار فيما يحاكى رسم القصر الملكى ، وقد حطّ عليه الصقر رمز « حوريس »[1] مشرعاً هامته إلى السماء .

وتروى لنا القصة فيما تروى من أنباء الماضى أن مصر قد تذوقت لوناً من ألوان الوحدة تحت حكم ملك واحد فيما قبل أيام « مينا » مؤسس « الأسرة الأولى » . وتروى لنا أيضاً أن لمصر علاقة بلبنان قديمة قدم القصة ، وتطالعنا الآثار بأن مصر أفادت من خشب الأرز اللبنانى فى بناء السفن والتوابيت ، وأغلب الظن أن علاقتهما كانت علاقة الأخ الكريم بالأخ الكريم ، ولم تكن

(١) سورة الأنعام : آيات ٧٥ ، ٧٨ .

(١) كان الأسد رمز الظاهر بيبرس .

غير ذلك طوال أيام تاريخهما ، إلا فى فترات التدخل الأجنبى وتسلطه البغيض .

ونحن لا ننظر إلى القصة من زاوية الخير والشر كما يفعل الوعاظ ، ولكن نراها من ناحية علاقتها التاريخية بالشلال الأول فالنيل شخصية واضحة تلازم البطل « أوزوريس » فى جميع مناظر القصة ، إلا ما كان منها خارج واديه ، بل لعل البطل يندمج مع النيل فى بعض فصول القصة . وشخصية «أوزوريس» فيما يظهر ، هى الصورة المجسمة العاملة المدبرة للنهر الميمون ، بل إن اختيار قاعتى العدل المزدوجة فى عين شمس أولا ، ثم فى الشلال الأول أخيراً على وجه التحديد ، كان بسبب وجود مقياسين للنيل عند منبعه وبدء تفرعه إلى أفرع كثيرة ليست من صلب النيل ، بل إن بعضها لا يمتلىء إلا فى فترة الفيضان ـ وقد كان للمقياسين أخصائيون يقيسون زيادته ونقصانه ويزنون مياهه ، ويرصدون عليه حركاته ، ثم يقدرون من وراء هذا كله دخل الحكومة وأرزاق الناس .

وعندى أن اهتمام المصريين بمنابع النيل عند الشلال الأول لم يكن عبثاً بل كان لابد لمنابع النيل من إدارة عليا تهيمن عليه ، لا تدانيها فى عظمتها إدارة الشمال ، كما هو الحال فى يومنا هذا ، فإن مصلحة الرى المصرى بالسودان توافى البلاد بأخبار النيل على الدوام .

ويعزز رأينا هذا ما قاله اللاح «لايزيس» من أنه لا يستطيع أن ينقلها بإذن منها ـ يعنى بذلك أنه موظف مسئول وأنه لا يتلقى الأمر إلا من صاحب الأمر ، وتطالعنا الآثار بأن حاكم الجنوب اتخذ كرسيه فى جزيرة فيلة عند الشلال الأول متمتعاً بأقصى ما يتمتع به عامل من ثقة مليكه .

ونحن إذ نؤمن بوجود إدارة عليا للنيل عند منابعه مع وجود السفان وسفينته فى هذا المكان والاهتمام « بفينقيا » موطن أخشاب الأرز ، كل أولئك يحملنا على الترجيح بأن ملاحى الشلال الأول هم أول من أنشأوا السفن تجرى على صفحة النيل السعيد بسم الله مجريها ومرساها .

ولعل بين أسناد التاريخ الأثرية ما تكشفه لنا الأيام فيؤيد هذا بصورة قاطعة .

ولقد ظل ملاحو الشلال الأول محافظين على عهدهم مع النيل فصادقوه وحالفوه ، وعاشوا بين كنفه فأطلعهم على مكنون سره ودخائل نفسه ، فعرفوا كل صخرة من صخوره ، وخبروا كل شعبة من شعابه ، وتروى لنا مخلفات القدماء هنا بأن « أونى » أحد عمال « مون رع » فى جزيرة فيلة فى أيام الأسرة السادسة سنة ٢٣٢٨ قبل ميلاد المسيح تمكن من أن يقتطع طريقاً بين صخور الشلال ليفتح سبيلا لسفن صاحب الجلالة إلى الجنوب ، وبعد ذلك بستمائة سنة[1] تمكن عمال الشلال الأول أن يعيدوا لسنوسرت الثالث فتح هذا الطريق ثم لما كانت أيام تحتمس الثالث الذى مد الله فى سلطانه ، فأمست له أمبراطورية عريضة تمتد من « قرن الأرض إلى أطراف المياه المكوسة »[2] ، أراد قمع الثائرين فى الجنوب ، فوجد القناة قد طمسها تيار النيل ، فأمر ملاحى الشلال الأول أن يعيدوا حفرها وهكذا مكنوه من العودة إلى طيبة بطريقها . ومن ثم وضع فى أيديهم أمر العناية بها[3] لتبقى مفتوحة وتجرى التجارة بين الشمال والجنوب ولإيصال ثقافات الشمال إلى أبناء الجنوب فيؤلف الله بين قلوبهم ويصبحوا بنعمته إخواناً . أو للضرب على أيدى الخونة المارقين من أشياع إبليس ، الذين تتحرك فيهم الغرائز الدنيا ، ويدفعهم الأثرة وحب النفس وشهوة المادة إلى تدمير وحدة الوادى السعيد وتقطيع أوصاله ، لمغنم زائل ، أو لجاه زائف ، لا يلبث هذا أن يجرهم مقرنين بأصفاد الذلة ، ويطوح بهم إلى الحضيض من وادى العدم

فعليكم سلام الله ، أيها الأمجاد من أبناء « تاستى »[4] وإلى اللقاء مرة أخرى فنحيى ساعة نستمرىء لديذ ذكراكم العبقة بعطر الخلود .

(أسوان) مصطفى كامل ابراهيم
وكيل اتحاد الثقافة الأثرية

(١) راجع Breasted : A History of Egypt.
(٢) قرن الأرض عند دجلة والمياه المكوسة هى الفرات .
(٣) راجع Breasted : A History of Egypt.
(٤) مقاطعة الشلال الأول ، راجع تحوس جوسق سنوسرت بالكرنك .